مذكرات خاصة

(٣) تجاربي في الحيـــاة*

بقلم الاستاذ أسعد لطفي

جدت في فترة العطلة السنوية أمور لا يسعني تركها لأن فيها من العظات والعبر الكثير، فقد حدث أن كان في أول شهورها ـ وهو شهر رجب ـ مولد السيد البدوي المعروف بالرجبية، وفيه معرض كبير للمعاملات والأخلاق والعبادات، وفيه مآس وفواجع ومهازل، وفيه عظات وعبر.

في أمثال هذا المولد ترسم الصور الحقيقية للأمة في المعاملات، فقد يؤم أمكنة الموالد خلق كثير يستعدون لأيامها ويقترون على أنفسهم لجمع المال اللازم وإنفاقه فيها، فتروج بعض السلع كصنفي الحمص والحلوى، وترفع الرذيلة أعلامها، وتبدو في أقبح صورها، وتنتشر الامراض والأوبئة، وتنتقل الى القرى والبلاد وتكثر جرائم القتل والسرقة والاعتداء على الاعراض، وينتفع المرابون بانتهاز الفرص لاقتناص الأغرار الجهلاء، وترتفع اسعار الخمور والمخدرات والمغيبات. كل هذا واقع على رأس العامة السذج، وليس هناك من ينصحهم أو يفكر في مصيرهم أو يغار على الدين، وقد ارتكبوا كل ذلك على عقيدة أنهم في موسم من مواسمه؛ والأدهى والأمر أن تنصب السرادقات وترفع الأعلام وتحوطها عناية الأمن العام بمسايرة المواكب، وفيه يقوم فريق من رجال يتسمون باسم الدين، ويمثلون أدوار الذكر بالخلاعة والرقص على الأنغام، وبجوارهم رجال لو أنهم أدوا واجبهم وغضبوا لدينهم لانتشلوا اسمه الكريم من بين معتقداتهم وتصرفاتهم.

كان لهذه الموالد اثرها الحميد لو أن القائمين بها نهجوا على منوال القادة الحكماء، وأعدوا سير أصحابها وهم من أهل التقوى والمغفرة، وأحيوا ذكراهم بنشرها بعيدة عن التغالي، فأفهموا الناس حقيقة رجالهم، ودعوهم إلى تقليدهم والاقتداء بأعمالهم، وكان من الجميل النافع الحرص والغيرة على كرامة الدين، فاتخذت الحيطة الشديدة لمنع الموبقات والمنكرات والدعاية لمحاربتها بالقوة واللين والنصح والارشاد، وانتشال هؤلاء البسطاء الذين يفقدون أموالهم وعقائدهم وعافيتهم وصحتهم وأملاكهم، وتكون فرصة سانحة لهدايتهم وإرشادهم إلى الصراط السوي المستقيم.

وأعجب ما رأيت ولا زلت أذكره أنه بعد انقضاء المولد تكتب السعادة في الدارين لمن ينال الحظوة بحمل مكنسة يتوجه بها إلى المقام الأحمدي ويعمل في نظافة أرضه وغسلها بالماء؛ وقد

(*) راجع ج ٩ و ١١ من مجلة « المعرفة »

أصبت بسعال حاد كاد يودى بحياتى، لأنى قمت بمهمة الكنس فى أشد أيام القر، فأصابنى تصلب فى قدمى لولا عناية من الله أنقذتنى، وكتب لى الشفاء بعد علاج طويل. ولا تنس القربى والزلفى بنوالك قطعة من القماش الأخضر يمن عليك بها رجال الضريح مما يلف كمامة للمقام، لأن فيها سر ذلك الولى العظيم فتحملها تبركا بها واحتماء فى سرها وأملا فيما فيها من خير ونفع عظيم.

لست ممن ينكرون الولاية والأولياء، بل أعتقد فيما قرره الدين وأحترم نصوصه بشأنهم؛ ولكنى أذكر ماقلت بعد ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن علق ودعة فلا ودع الله له» رواه أحمد والحاكم فى عقبة بن عامر رضى الله عنه. وقيل عن عقبة أيضا: إنه جاء فى ركب عشرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبايع تسعة وأمسك عن رجل منهم، فقالوا: «ماشأنه؟» فقال عليه الصلاة والسلام: «إن فى عضده تميمة» فقطع الرجل التميمة، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من علق فقد أشرك» رواه أحمد والحاكم. فماذا يقول السادة العلماء، وعلى مرأى ومسمع منهم يجرى كل ذلك وفى مقام كل ولى؟

أذكر ذلك ولا أنسى النذور، لأن لى منها حكاية لا أنساها؛ أما النذور فهى شرك بالله وإنكار لوجوده سبحانه وتعالى، إذ يتقدم من نذر نذره لذلك الولى إن قضيت حاجته وتمت مسألته، فعليه لسيده الشيخ كذا وكذا، مما ربما لا يكون فى طاقته أو ربما استنفد ماعنده أو ألجأه إلى الاقتراض؛ فهل بعد هذا عمل من أعمال الشياطين، لأنه اسراف وتبذير، وشرك وتضليل؟ والحزن والخجل أن توضع الصناديق المخصصة لذلك، وترضى وزارة الأوقاف باستغلال بساطة هؤلاء الجهال! وهل لم يكن من البر بذلك الولى أن تخصص هذه الوزارة وعاظاً يعظ هؤلاء السذج أو يهديهم إلى دينهم، ويبين لهم ضلالهم؟ إن هذا ما يتجاهله القائمون بخدمة الضريح، إذ تدفعهم الأطماع إلى الاستزادة واستدرار مافى جيوب أصحاب النذور؛ وبهذا الضلال تدب الغيرة والحسد والحقد فى قلوب المتنافسين، فاللهم رحمة بعبادك واهدهم إلى صراطك المستقيم.

أما حكايتى مع أصحاب النذور فهى: فى يوم من أيام شهر رمضان، وأنا ابن سبع سنوات، كنت أسير فى الطريق وإذا بجاموسة هائجة يجرى وراءها خلق كثير، فلم تشفق على، وهجمت بقرنيها ورفعتنى بأحدها ثم ألقتنى على الأرض، ولطف بى ربى إذ أزعجها ضجيج الناس، فتابعت سيرها وتركتنى بين الحياة والموت، وقد تداركنى لطف من الله ونجوت من شرها بعد عذاب وعلاج طويل؛ وهذه الجاموسة كانت نذراً للسيد البدوى فاهتمت صاحبتها بأمرها وكرمتها، فحرمت تشغيلها واستبقتها طوال العام ترعى دون أن تعمل شيئاً، وحجبتها فى دارها حتى حان وقت تقديم النذور فأحضرتها معها إلى البندر فأهاجها مالم تتعوده من حركة وضوضاء فثارت ثائرتها، وقد حزنت صاحبتها اعتقاداً بغضب السيد عليها وعدم قبوله لنذرها

فعاهدته على أخرى غيرها، وهذه تذبحها فى عامها، ومازلت أذكر تلك الحادثة كما زرت السيد البدوى.

انقضت أيام المولد بسلام، وبقى بعدها جيش من الذباب احتل المدينة، وضيف من الأوبئة تفشى فيها، وأثر من الضلال لا يمحوه التكفير عنه.

وقد أتحفنا صهر عمى (بحب العزيز وحمص السيد) واشتدت عنايته بنا فألبسنا (الطرطور) يوم الخليفة، وهذه منة ونعمة طالما تحدث الناس بها؛ وقد أنعم الله عليه إذ رزق ابنته زوجة عمى بفتاة كانت سابعة من ولدت، أما من سبقوها فكانوا قد ماتوا، فنظر إلى نظرة عطف وأشار على عمى بزواجها بى اعتقاداً أن هذا ربما أبقى عليها؛ وفعلا فتح الحساب، وتقيد مقدم الصداق مائتى جنيه من مال اليتيم القاصر أسعد.

وكنت أنتظر من وراء هذه المصاهرة معاملة جديدة؛ ولكنها كانت مأساة، فقد استخدمتنى «حماتى» زوجة عمى لمولودتها، وكانت تترقب عودتى من المدرسة لكى أحمل «زوجتى» وكأنها كلمة حفظتها إذ كانت دائماً تقول: «ياأسعد احمل مراتك» وكان عيشى مراً إذا بكت، وعذابى شديداً إذا لم أسكتها، وشاء الله أن تعيش لأعيش تعساً بجوارها.

قلت إنها السابعة، ومن سبقها رحل إلى الأبد يه ضحية الجهل؛ إذ كان أول ما يودى بحياة هؤلاء الاطفال تحريم الماء عليهم طوال العام الاول، وذلك لأن والديهم مصابان بالزهرى وفى عرف القوم أن أول مرة يصل الماء إلى بشرتهم يظهر الطفح عليها ولو عولجا منه؛ ومن وراء هذه العناية المعكوسة الأحجبة التى ينوء بحملها الرجل، فقد كان لكل ولى أثره من حجاب أو تميمة، وفى بعضها شىء من الحديد والأقبال، لابعاد الشياطين ووضع الأغلال فى أعناقهم؛ ومما يزيد الطين بلة، الملابس الصوفية والقطنية التى يبليها على جسم الطفل استمرار بقائها عليه، وعدم السماح باستبدالها خشية الاصابة من البرد؛ والطامة الكبرى إذا مسه أى عارض فقد تستخدم معه كل شىء يوصف، فاذا فحصت أمعاءه أو معدته وجدتها قارورة ملئت بكل الأجزاء من حامض وحلو وحريف ومتبل؛ لهذا كله لايلبث الاقليلا حتى يلقى الله شاكياً جهل أمه ومن حولها من النساء والمخرفين من الرجال.

كان لهذه المسكينة ولد جميل الخلقة، له عينان تبارك الله فى قدرته، فرمدتا وظهر فيهما الصديد، وحضرت عجوز أشفقت عليه ووصفت له روث الحمار وقت إبرازه، فسرعان ما أطيع أمرها ونفذت اشارتها فامتنع الصديد وقت العمل، وهموا باعادة الكرة فأوقفهم تكور العينين وانتفاخهما، فتشددت، قاتلها الله، فى تنفيذ قولها، وقد تم لها ما شاء القدر، وفى الصباح فقد الطفل باصرتيه، وكان الله رءوفا رحيما، فمات بعد حمى معوية فى زمن قريب.

أمد الله فى عمر «امرأتى» وخرجت بها مرة فى الطريق، وحملتها فوق ذراعى، وكانت بدينة، وأحجبتها كثيرة فسقطت منى، وجرح أنفها، وعبثاً حاولت تضميد الجرح فعدت أدراجى للبيت

وكانت ليلة ليلاء وكارثة دهماء، صبت فيها زوج عمي على جام غضبها مستفيضاً، فبت ليلي أقاسي الذل والعنت، ولم تشفع لي امرأتي عند أمها؛ والطامة الكبرى أن واحدا من أحجبتها ضاع فضاع صواب أمها وبدأت تهددني بالجزاء الأوفى إذا لم أبحث عنه وأعيده، وعبثا حاولت الحصول عليه؛ وكانت جلسة جامعة منها ومن أمها وأبيها وزوجها يتدبرون الأمر إذ يخافون ضياع حياة ابنتهم بضياع هذه الذخيرة، وقد أنقذني من مخالب التعذيب امتداؤهم إلى الذهاب في الغداة إلى الشيخ حسنين لعمل غيرها.

العقائد يا رجال الدين! فليس أضر عليها مما تسرب إليها من الجهل وانصراف العامة إلى كثير من الوثنيات، فقد وضعوا على رأس «زينب امرأتي» منديلا وطوقوا عنقها بآخر، وباتت طوال ليلتها مثقلة الغطاء ليصل عرقها إلى المنديلين، وفي الصباح حملتها على كتفي وسرت بها في ركاب جدتها إلى دار الشيخ حسنين، وكم كانت بعيدة جداً، إذ كنت أحمل الفتاة طوال الطريق، ولم أستطع الاستراحة قليلا، ولم أتركها تمشي خوفاً عليها من الأرض ومن في الأرض من الانس والجان، وفيهم أخوها منهم؛ وقد وصلنا إلى الشيخ حسنين وبالسعادة التي سهل نوالها بدخول داره التي غصت بمئات النساء وكلهن يحملن أولادهن ووقفت بالباب عجوز شمطاء، الويل لمن يعصى لها أمراً؛ فلما رأتنا مقبلين هشت وبشت في وجه جدة امرأتي، ثم أومأت إليها لتقرب منها وحملت منها الفتاة وقبلتها ثم قالت: (اسم الله عليك! ياسلام! ياست دي منزاره) هل وقعت على الأرض ؟؟؟ وكان الجرح ظاهراً في أنفها، فأجابتها: نعم، أوقعها (المنجم ده) فقالت العجوز: (طمني خاطرك، يظهر إنها حقيقة، وسيدنا قادر على شفائها، تفضلي ياسيدتي)؛ فناولتها قطعة فضية للشيخ وبعضاً من الدراهم فأفسحت لها مقعداً وأجلستها.

كانت ساعة مبكرة من النهار، وأذن مؤذن الصلاة للظهر، ومكثنا إلى أن حانت صلاة العصر ولم يسمح الشيخ بمقابلته لأحد، وذلك لأن قرينته من الجان، ومن العجيب أنك لم تكن تسمع صوتاً ولا همساً، ولم تكن هذه عادة النساء؛ ولكن اعتقادهن في الشيخ وقدرته على الجزاء ألجمت ألسنتهن فقعدن ينتظرن الفرج القريب؛ وأخيراً، وقد قاربت الشمس على المغيب، وإذا بالاذن يصدر من فقيه، وبدأت المقابلات، فدخلت في الدور الذي حدده، فرأيته شاباً لا يتجاوز الثلاثين من عمره، جميل الخلقة، صبوح الوجه، جالساً على مقعد وثير، يفوح العود والند في أرجاء غرفته، وكان متكئاً على وسادة من حرير؛ فلما دخلنا اعتدل قليلا وحملق في وجه الصغيرة ثم قال لجدتها أعطني (الأثر) فناولته المنديلين، وقد عقد على طرف كل واحد منها قطعة فضية من ذات العشرين قرشاً، فتناول الأول وشم رائحته، ثم تظاهر بالغيبوبة قليلا وجعل يحدث نفسه كمن يهذي، وبعد قليل مسح وجهه بيده واتجه إلى الجدة وقال: لاتخافي، عمرها طويل، والواقعة سليمة؛ ثم مد يده بالمنديل الثاني ووضعه على أنفه وبدأ يسعل أو يتساعل، وبعد لأي

أعاد ما قاله وزاد عليه : خذى هذا الحجاب، وضعى عليه شعرتين من رأس يتيم الأب والأم وقطعة من جلد قنفذ، وضعى قطعة من الخبز تحت رأس الطفلة ومعها قليل من الملح مدة الليل، وفى الصباح أطعمى الخبز لكلب أسود، وضعى الملح مع قطعة من الجلد، ثم عودى بعد أسبوع؛ فخرجنا بالغنيمة وقدمضى طول النهار ولم أتذوق طعاماً، وعدنا إلى البيت فقابلنا من فيه بتشوق عظيم للوقوف على ماقرره الشيخ؛ وبعد أن قصت عليهم الجدة القصة اطمأنت الخواطر وهدأت النفوس وانتعشوا بحسن النتيجة ، أما أنا فقد أنهكنى التعب ومالت رأسى وأخذنى النعاس فبت ليلتى بمكانى بدون غطاء وعلى غير فراش حتى أيقظتنى شدة البرد وما أصابنى من جرائها حتى كاد البول ينساب منى على غير إرادة، ولم يكف هذا زوجة عمى، بل كان أول مالاقيته فى صباحى تعنيفى وتهديدى اذا ضاعت هذه النعمة الجديدة ؛ وسرعان ماقضينا الأسبوع وعدنا إلى الشيخ نحمل إليه هدية من الفطائر والحلوى ونجر له خروفاً حنيذاً ؛ ولا يفوتنى أن أنبه سيدى القارىء إلى أن مولانا الشيخ حسنين تنازل وقبل منا الهدية وسلمها إلى فتاتين جميلتين تقومان بخدمته.

تمت هذه المأساة وعلق بذهنى أن عمى الذى كان فى أعماله مسلماً يؤدى فرائض الصلاة فى مواقيتها، وكان يعمل ما استطاع على اعتقاد أنه يؤدى واجبه ؛ كان موقناً ومعتقداً أن للشيخ حسنين فضلا كبيراً فى حياة ابنته، وكان لمجرد أى إشارة يقوم باجابة مايطلب له من الهدايا والعطايا، وكل هذه العائلة المسلمة كبيرة الايمان بمعرفة الغيب واستطاعة الشفاء من السقام، وكانت تقدس أوامره، وهذا كله باطل وشرك وضلال ، وعلى هذه الضلالة والزيغ فى العقيدة أغلب الناس، فأى شقاء وبلاء بعد هذا الضلال المبين ؟؟

انتهى مولد السيد البدوى، وجاءت ليلة نصف شعبان؛ فوجدت أطفالا منتشرين فى الشوارع والأزقة والطرقات ينادون جميعهم « دعاء نصف شعبان بمليم » فسارعت لشراء ورقة منها، وكنت سباقا إلى حفظ مافيها ، وماحانت ساعة الغروب حتى كنت بالمسجد وبيدى المصحف الشريف، ونفذت ماجاء بتلك الورقة من: تلاوة قرآن إلى صلاة ودعاء، وثابرت على هذه السنة حتى طالعت رسالة فقيد الاسلام المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش « الاسلام دين الفطرة » واهتديت إلى الحق وعلمت أن العبارات مع مافيها من تقديس وتسبيح، وجد فيها من الدخائل ما أخرجها عن القصد السامى الشريف، لأن ذلك الدعاء يقوم به العامة والجهلاء على عقيدة أنه مهما ارتكب المسلم من الذنوب والآثام، فانه بمجرد الدعاء يغفر له طوال عامه ما اقترف، وقد يعود إلى فجوره وفسوقه فى عامه التالى على أن ينال الغفران بالدعاء ، والاسلام برىء من ذلك ويدعو إلى التقوى والاستقامة .

والمحزن أن كل ذلك يجرى فى المساجد، وتحت سمع علماء الدين وبصرهم، وهم عن نصح الجهلاء معرضون ؟

أسعد لطفى حسن